الفصل الأول

التعليم المستمر

مبرراته وخصائصه

تنطلق دراستنا هذه من وجهة نظر تركز على أهمية المتغيرات العالمية التى تؤثر بصورة فعالة على التربية، وعلى تأكيد النظرة الإنسانية لطبيعة الإنسان فى علاقته مع متغيرات الواقع الذى يعيش فيه حيث أكدت أهمية النظرة للإنسان باعتباره منظومة مفتوحة، قادر على النماء والارتقاء المستمر، وعلى إزكاء النفس مادامت الحياة من خلال التعليم الذاتى المرتبط بضرورة النماء والارتقاء للنفس الإنسانية .

ومن وجهة أخرى تؤكد على أهمية النظرة الإنسانية الدينامية للتربية، باعتبارها عملية تفاعل مستمر بين الإنسان وواقعه ، من خلال حضوره الدائم والواعى فى العالم ومعايشته للواقع بكل إيجابياته وسلبياته، مدفوعاً بحرية الإرادة والقدرة على الاختيار وإرادة العطاء المستمر وهكذا تصبح التربية ليست فقط مجرد التربية المدرسية وإنما هى الحياة بطولها وعرضها وعمقها، وبذلك تصبح عملية مستمرة ما استمرت الحياة قائمة على عدة مبادىء من أهمها أن التعليم المستمر تعليم للجميع، وتعليم للإتقان، وتعليم مرن وديمقراطى وإنسانى .

ونحن الآن نعيش عصراً يقترن فيه التعليم بالحياة، بل لعله يمثل شرطاً أساسيًّا من شروطها . فلكى يستطيع الإنسان العيش وسط هذا الاستعمال الضخم لنتاج المعرفة سواء تمثلت فى كلمة مكتوبة أو آلة معقدة، عليه أن يتعلم هذا الاستعمال ـ بل ويتعلمه بإتقان، سواء أكان ذلك فى مدرسة أو خارج مدرسة . وهذا الفيض المتزايد من التراكم المعرفى، وهذا التغير السريع فى أساليب وأدوات الاستعمال، وهذا النمو الكبير فى وسائل الاتصال ، والتى قربت المسافات الطبيعية والفكرية وتكاد توحد المفاهيم بين دول العالم ناميها ومتقدمها، هذا كله يشير إلى أن ذلك الذى يعلم سوف يكون ذلك الذى يستطيع الحياة بتوافق، أما ذلك الذى لا يعلم فسوف يعيش على هامش نمط حياة سريعة التغير .

ولأول مرة - تقريباً - تكاد تتحد لغة أهل التربية فى مختلف المجتمعات، تطالب جميعها بالخروج من هذه الأزمة التى يشهدها التطبيق التربوى . أزمة تتمثل فى أن الأنظمة التعليمية القائمة حالياً عاجزة عن أن تجارى - بتكوينها القائم-متطلبات العصر الحالى ومتطلبات المستقبل سواء المنظور أو غير المنظور . وظهرت توصيات متعددة تقترح إجراءات تجيب على سؤال بسيط للغاية يمثل محور أزمة التربية . «كيف نعد الإنسان لعالم متغير؟» . وكاد الاتفاق أن يجمع على أنه لا حل إلا بأن تأخذ المجتمعات بنظام للتعليم المستمر يتيح الفرص أمام الإنسان كى يحصل على ما يطلبه من التعليم كلما طلب هذا التعليم .

وصيحة التعليم المستمر التى تكاد تظهر الآن فى كل كتاب حديث فى التربية لا تمثل إلا تعبيراً حديثاً عن مفهوم عاشته البشرية فترة طويلة من حياتها فقد كان هناك اهتمام لدى بعض الشعوب والحضارات بالتعليم المستمر بدرجة أوبدرجات تفاوتت بين الاحتفاء الشديد وبين الاهتمام القليل .

وتؤكد مجريات حياتنا المعاصرة أن ثمة حاجة - دائماً - إلى أن يتعلم الإنسان شيئا جديدا طالما كان نشطاً وحيًّا . فالحاجة إلى التعليم المستمر طول الحياة تنبع من قوى متعددة منها أن الإنسان تتغير أدواره الاجتماعية فى الحياة بتطوره من الطفولة إلى الشيخوخة وكل دور من هذه الأدوار يحتاج إلى أن يعرف الإنسان بعض حقائق عنه، فيسعى وراء تعلمها من المصدر المتاح له . ومنها أيضاً أن الإنسان تتغير أطوار حياته الفسيولوجية وتتغير بالتالى الوظائف التى يقوم بها ويتطلب هذا - بالتالى - أن يتعلم أشياء جديدة .ومنها أيضا عوامل أخرى متعددة اجتماعية واقتصادية وثقافية وشخصية تتعلق بالفرد ذاته تدفعه إلى أن يكتسب مهارات ومعارف واتجاهات جديدة.

ولذلك نجد فى كل مجتمع بدايات وأسس لتطبيق مفهوم التعليم المستمر ، مكونة عناصر تعليمية متعددة، نظامية وغير نظامية وعرضية . والمطلب السائد الآن هو أن تتوحد هذه العناصر جميعها فى نظام تعليمى رئيسى شمولى يحتوى تنوعاً أكثر وتكاملا أفضل وعطاء أكبر ليشمل كل السكان فى كل الأعمار، مع تحرير هذا النظام من الأشكال الجامدة والقوالب النمطية التى سجن التعليم فيها نفسه، وذلك لأنه إذا أردنا أن نحرر أنفسنا من قوالب جامدة حبسنا فيها ابتكاراتنا ومبادراتنا فعلينا أن نحرر التعليم من أطره الجامدة التى حبسناه فيها .

لماذا التعليم المستمر ؟[1] :

فى مثل الظروف الحالية التى ينبغى أن نتخذ فيها قرارات الغد واليوم، والتى تتولد فيها المشكلات، ولا يكون هناك مجال فسيح أو فرصة كبيرة لأن نفكر فى إجراء تغييرات جذرية فى النظام التعليمى . فلا نكاد نجرى تغييراً ما حتى تتضح أمامنا ضرورة تغيير هذا التغيير .

إذن ما العمل بالنسبة للنظم التعليمية التى تتمتع بدرجة عالية من الاستقرار وربما الجمود .

علينا أن نفكر فى صيغة تعليمية شمولية تجمع عناصرها ذلك الجزء الذى يمكن أن تجرى فيه تغييرات سريعة تواكب التغييرات السريعة فى المجتمع، ويتولد من تلك التغييرات الذبذبات وردود الأفعال المتعددة التى تغير فى النهاية من أكثر أجزاء الموقف جموداً وهو النظام المدرسى دون أن تختل بنية التعليم .

وفى كل المجتمعات تقريبا ، كانت توجد ، وما زالت توجد، عدة مؤسسات تراثية تقوم بدور تعليمى مدرسى تصاحبها مؤسسات عرضية، وأخرى غير نظامية . وأخرى نظامية تقوم بدور تعليمى مستمر فى المجتمع . وذلك قبل أن يظهر على السطح مفهوم التعليم المستمر الذى نادت به التقارير الدولية وشبه الدولية والقطرية فى السنوات الأخيرة .

إذن ، ما الجديد ؟ المطلوب أن يتم وضع هذه المؤسسات جميعها فى نسق متكامل يوزع الجهود ويحدد الأدوار ويمنع الازدواج والتضارب . لقد كانت هذه المؤسسات تقوم بجهودها كمحاولات جزئية تستجيب لحاجات خاصة ، فى غياب فلسفة تعليمية مدركة ، كما أن هذه المحاولات لم ترتبط مع الهدف العام للمجتمع، فقد كانت نتاج أهداف خاصة بالهيئات الخاصة، ولم تمثل جزءا من السياسة العامة أو المطلب الاجتماعى الذى ينادى بأن يكون التعليم متاحاً لكل المواطنين طول الوقت .

صاحب ذلك كله أن استقر فى أذهان الكثيرين أن التعليم المدرسى هو النوع الوحيد للتعليم . واستقرت مفاهيم التعليم المدرسى على أنه المؤسسة الوحيدة للتعليم فوق عدة فروض آمن بها البعض كأنها أحكام نهائية . وتمثلت هذه الفروض فى أن مرحلة الطفولة هى المرحلة الوحيدة الصالحة للتعليم ، وأن الأطفال ينبغى

تعليمهم تلك الأشياء التى ينبغى عليهم أن يمارسوها عندما ينضجون، وأن التعليم لا يمكن أن يتم إلا فى إطار القوالب المدرسية. ومن ثم حملت فكرة التربية كل ما «ينبغى» وما «لا ينبغى» وما «يمكن» وما «لا يمكن» وما «يحسن» وما «لا يحسن» إلى الدرجة التى أصبح الاقتراب منها من نظام التعليم المدرسى اقترابا من منطقة محرمة الطريق إليها ملىء بالممنوعات.

إننا نتحدث دائماً فى نظامنا التعليمى الحالى - عن الطفل الذى «استكمل تعليمه فى المدرسة»! كأنما هناك شىء نهائى مختوم بخاتم الكمال التعليمى تقدمه المدرسة، أو عن «التعليم الذى تتيحه الدولة ممثلاً فى عدد معين من السنوات»! كأنما عكف العاكفون على تجميع كل ما يحسن للإنسان أن يتعلمه وبرمجوه فى عدد معين من السنوات.، ونضع فروقاً مصطنعة وتقسيماً طبقيًّا بين التعليم والتدريب كأنما يبدأ الآخر عندما ينتهى الأول.

وفى يقين الكثيرين، أفرادا وحكومات، أن التعليم يرتبط بقيود الوقت والسن والمرحلة والمكان والشكل، وأن التعليم يقدم للأطفال فى فترة معينة من حياتهم فى التعليم الابتدائى والثانوى والعالى، محددة بوضوح بشهادات وتنسيق يوازى سنين عمرية معينة، وأن هذا التعليم ينبغى أن يقدم فى مؤسسات ومعاهد معدة لذلك خصيصاً، ولا تصلح - أيضاً - إلا لذلك، وبوسائط المدرسين المؤهلين المحترفين - وبواسطتهم فقط، وأن هناك طرقاً معينة وأشكالا بعينها تصلح للتعليم وأخرى لا تجوز أو تليق. هذا هو ما يعنيه معظمنا بمفهوم التعليم.

ولكن مقتضيات العصر تفرض غير ذلك كله.

فتفاصيل أزمة التعليم؛ وما تعبر عنه من أشكال متعددة سواء فى مدخلاتها- ممثلة فى عجز النظام التعليمى عن استيعاب المتعلمين، وعجز محتوى التعليم عن أن يعلم المجتمع، وكثافة الفصول وتعدد الفترات، ونقص المعامل... الخ - أوفى مخرجاتها ممثلة فى تلك الأعداد المتزايدة من الخريجين المتعطلين عن العمل أو المنفصلين عن حاجات المجتمع الحقيقية للعمل، تفرض أن تكون هناك أساليب أخرى غير الموجودة حالياً.

والانفجار المعرفى؛ الذى تشهده البشرية وعجز النظام التعليمى المدرسى عن أن يلاحق التراكم المعرفى، مهما طالت سنوات التعليم ومهما كثرت ساعات

العمل به ومهما زادت عبقريات مدرسية، تطالب بأن يكون هناك نظاماً مفتوحاً للتعليم يتيح التحاق الأفراد به طوال حياتهم .

والفجوة المتزايدة بين ما تُعلمه المدارس وحاجات العالم المتغيرة ؛ثقافيًا واقتصاديًا وحضاريًا وتكنولوجيًا، تقتضى بأن يفتح التعليم أبوابه لكى يعود إليه الأفراد كلما احتاجوا إلى جديد ليتعلموه .

والمكانة التى يناضل الإنسان الحديث من أجلها ؛ للتحرر من قيود أميته الحضارية، للحصول على حقه فى التعليم ، للاستمتاع بوقته ثقافةً وفنًا وأدبًا وترفيهًا.. كل هذا يحتم أن تنفتح فرص التعليم وإعادة التعليم واستمرار التعليم أمام الفرد .

وهذا كله يدفع بنا إلى أن نبحث عن منظور جديد للتعليم، أحدث وأكثر مرونة يؤكد على قدرة الفرد على الاستجابة للمتغيرات الجارية أمامه أكثر مما يؤكد على قدرة الحكومات على توفير الفرص التعليمية .

منظور جديد تكون أعظم مهمة له تنمية استعداد الفرد «للتعليم المستمر» وتوفير الدوافع له للسير فى هذا الاتجاه، وفى ذات الوقت توفير المؤسسات التعليمية المتعددة له .

وليس من شك فى أن التعليم يمثل قوة كبيرة فى تشكيل الأفراد ، وتحديد مصير الجماعات ومستقبل الأمم وبسبب هذه الأهمية للتعليم أصبحت مناقشة مسائله ومراجعتها عملية مستمرة وموصولة فى كل مكان ، وقد ازدادت هذه المناقشة والمراجعة إلحاحاً فى الحقبة الأخيرة على كل من المستويين الدولى والقومى بسبب ما يطرأ على عالمنا المعاصر من تغيرات سريعة ومتلاحقة فى مختلفة المجالات العلمية والتكنولوجية والاقتصادية والاجتماعية .

هذه التغيرات العالمية لها أكبر الأثر على التعليم باعتباره منظومة مفتوحة على غيرها من المنظومات المجتمعية ، تؤثر فيها وتتأثر بها ، ولعل أهم هذه التغيرات هى المعدلات المتزايدة من التطور العلمى التكنولوجى ، وما ينتج عنه من آثار على حياة الإنسان المعاصر وهى فى مجملها **مبررات تجعل من التعليم المستمر ضرورة فى الوقت الحاضر ولعل أهمها** (٢) :

- سقوط الحواجز بين العلم والتكنولوجيا واختصار المسافة الزمنية بين

الكشف العلمى وتطبيقه فى خدمة الإنسان بل أصبحت حاجات الإنسان تدفع العلم والبحث العلمى إلى تلبية تلك الحاجات .

ـ تعقد الخبرة والمعرفة الإنسانية وتشعب عناصرها وظهور علوم وتخصصات جديدة، مع ظهور علوم وتخصصات جديدة، مع ظهور الحاجة إلى تكامل بعض ميادين المعرفة فى الوقت ذاته .

ـ زيادة معدل سرعة الأحداث العالمية وتشابك قضاياها وتعدد أطرافها وزيادة درجة تعقيد مناهج وأساليب مواجهتها .

ـ تطور وسائل الإنتاج وتعقد عناصرها وتضاؤل قيمة ووزن العمل العضلى البشرى وتزايد دور ووزن العمل العقلى .

ـ سيطرة الاتوميشن والسيبرنطيقا على حركة الحياة مما أدى إلى التقليل من المهارات اليدوية والتعليم والتدريب قليل أو متوسط الكفاءة والتعليم والتدريب المهنى والحرفى ، وزيادة أهمية المهارات والكفايات العقلية العليا ، وكانت نتيجة ذلك تركز القوى والسلطة فى يد الأكثر معرفة وتعليماً .

ـ تزايد قدرة الإنسان على استخدام موارد بديلة محل الموارد الطبيعية المباشرة من خلال الكيمياء التخليقية .

ـ تجاوز الإنسان لحدوده الطبيعية التقليدية ، بحيث أصبح يتعامل مع ظواهر متناهية فى الكبر (**الفضاء**) وظواهر متناهية فى الصغر «**الذرة وما بداخلها**» .

ـ توافر مزيد من البيانات والمعلومات العلمية التى من شأنها أن تزيد من فهم الإنسان لكثير من أموره ومن نظرته المستقبلية لبيئته والعالمية ومحيطه الحيوى .

ـ زيادة التفاعل بين الثقافات الإنسانية ، مع التأكيد على الإنجازات التى حققتها البشرية وأكدتها فى مواثيقها .

ـ زيادة متوسط عمر الإنسان نتيجة الاكتشافات الطبية الحديثة والارتفاع بمستوى الصحة العامة .

ـ تشابك العلاقات الدولية والاقتصادية والثقافية وبروز دور المنظمات الدولية والإقليمية .

- انتشار الاتجاه الديمقراطى وسيادته ، مطالبة الجماهير بكافة حقوقها الإنسانية والتى من أهمها التعليم .

- زيادة تأثير ثورة الإعلام والاتصال بما توصلت إليه من قدرة فائقة على كسر الحواجز ، وتخطى الحدود ، وتحويل العالم إلى قرية صغيرة .

كان هذا هو الجانب الإيجابى من التغيرات العالمية التى تمر بها وتتأثر بها إلا أن لهذه التغيرات جانبها السلبى الذى أصبح على درجة فائقة من الخطورة بحيث أصبح تأثيرها المدمر يفوق التصور، أو يمكن احتماله، ولعل أهم هذه المؤثرات المدمرة ما يأتى :

- انتشار أسلحة الدمار الشامل ، وخاصة الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية وما ترتب عليه من رعب نووى فالبشرية بعد أن دخلت العصر النووى حيث تستخدم طاقة الذرة للأغراض العسكرية قد فقدت أبديتها لقد أصبحت الأرض شحنة قادرة على حرق منطقة هائلة حتى تحيلها رماداً .

- ظهور العديد من المشكلات ذات الطبيعة الكونية، والتى لا يمكن لأى مجتمع مهما كان يملك من أسباب القوة على مواجهتها أو تحمل تبعاتها، ولعل أهم هذه المشكلات مشكلة التلوث البيئى وما تبعه من أضرار هائلة اقتصادية واجتماعية وصحية، ومشكلة الإدمان والطاقة والفقر ونضوب الموارد الطبيعية .

- الانفجار السكانى خاصة فى بلدان العالم الثالث التى تتسم بالتخلف والفقر والمرض وما نتج عنه من عدم قدرة إمكانيات هذه البلدان على توفير الحاجات الأساسية لأبنائها .

- زيادة التفاوت سواء كان اقتصاديا أو اجتماعيا أو ثقافيا، وسواء كان بين البلدان المتقدمة الشمالية، والمتخلفة الجنـــوبية، أو بين فئات وطبقات البلد الواحد .

- الهيمنة الاستعمارية بصور مختلفة على مقدرات الشعوب الفقيرة، والتدخل المباشر أو غير المباشر فى شئونها الداخلية، والعمل بطرق مختلفة على نموها واستقلال مقدراتها والسيطرة على اقتصادياتها، وذلك من خلال علاقات دولية غير متكافئة تفرض التبعية وتقوض الاستقلال .

ولم يكن وطننا العربى الكبير بعيداً عن هذه الأحداث وإنما كان بحكم موقعه الجغرافى وظروفه التاريخية فى القلب من هذه المتغيرات يتأثر بها ويؤثر فيها، وكان فوق ذلك له مشكلاته وقضاياه الخاصة التى تؤثر بدرجة أو أخرى على التعليم، فالوطن العربى يسعى إلى التنمية الشاملة من أجل اللحاق بركب التقدم ورفع مستوى معيشة أبنائه،فى حين يعانى اقتصاده تشوهات هيكلية تحد من انطلاقه.

ورغم كل ذلك توسعت الأنظمة العربية فى نشر التعليم فى مراحله المختلفة، وبدأت فى التوسع فى برامج تعليم الكبار ومحو الأمية، إلا أنه فى أوائل السبعينات ظهرت متغيرات عالمية ومحلية كان لها أثر كبير على حركة التعليم النظامى من أهمها:

- الركود الاقتصادى العالمى وما صاحبه من تضخم ، وصل فى الفترة من ١٩٧٠/١٩٨١ إلى ٢ر١١٪ سنويًا، مقارنًا بمعدل تضخم سنوى ٥ر٣٪ فى فترة الستينات، والذى أدى بدوره إلى تآكل ميزانيات التعليم.

- ارتفاع أصوات النقد للتعليم النظامى فى كل بلدان العالم تقريباً،انطلاقاً من نقد المؤسسة، ودورها فى المحافظة على بنية التفاوت الطبقى داخل المجتمع، وقهر الفقراء والمحرومين واعتبار المدرسة أحد مؤسسات الضبط الاجتماعى تفيد فى التصنيف الاجتماعى، وتعمل على تقنين الظلم الاجتماعى وتبرير أنواع القهر الثقافى والمادى .

- وفى أوائل الثمانينات صدر تقرير البنك الدولى الذى ناقش معضلة التربية من أوجهها المختلفة وأرجعها إلى:

- عدم المساواة فى توزيع الفرص التعليمية ، بمعنى عجز التعليم النظامى عن تحقيق ديمقراطية التعليم بأبعادها المختلفة -بعد المساواة والحرية والمشاركة.

- ضعف كفاية التعليم النظامى ممثلة فى التنمية العالمية للهدر التربوى من رسوب وتسرب وعدم كفاية الخريجين وضعف مستوياتهم المعرفية والمهارية، نتيجة لفقر التجهيزات ، ونقص كفاءة المدرسين، وعجز المبانى المدرسية، وارتفاع كلفة الوحدة التعليمية.

- عدم ملاءمة المخرج التعليمى فى مستوياته المختلفة لاحتياجات متطلبات كل من المجتمع وسوق العمل ، وما ترتب عليه من بطالة بين المتعلمين.

يضاف إلى ما سبق ما أكده تقرير كومز "P. Coombs" سنة ١٩٨٥ من أسباب الأزمة التعليمية مثل مشكلة الانفجار السكانى وطموحاتهم المتصاعدة المتمثلة فى الطلب المستمر على التعليم فى مستوياته المختلفة ، والأزمة المالية حيث وصلت ميزانيات التعليم إلى سقف لا يمكن تجاوزه فى معظم البلدان، والتغيرات التى حدثت فى مفاهيم التربية والتنمية، بالإضافة إلى فشل التعليم فى التغلب على مشكلتى البطالة والهجرة من الريف إلى المدينة، والتغلب على حدة التفاوت واللامساواة التى زادت مدته فى السبعينات والثمانينات .

كل هذه العوامل دفعت إلى أهمية البحث عن فلسفة وصيغ جديدة للتعليم يمكن أن تواجه هذه المتغيرات وتتغلب على أزمة التعليم، وتحقق ديمقراطية التعليم وتنهض بمتطلبات الحق فى التعليم لكل فرد باعتباره حقًا أوليًا وأصيلاً لكل حقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية، فكان مفهوم التعليم المستمرLifelong education فما هو التعليم المستمر.

التعليم مدى الحياة أو المستمر : Life Long education [٣] .

عرف التعليم المستمر بصيغه المختلفة قبل أن يعرف بمفهومه، لقد تأخر ظهور المفهوم أكثر من قرن ونصف من بدء ظهور أشكال وأساليب تعليمية خاصة بالكبار، والذين لم يتلقوا من قبل أى تعليم، أو الذين تلقوا قدرا من التعليم الأولى ورغبوا فى تنمية تعليمهم وكان ذلك فى الدول الصناعية المتقدمة كانجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، حيث شهدت نظما سياسية وتطورات وتحولات اجتماعية كانت لها ضغوطها فى تعزيز مكانة الطبقة العاملة فى المجتمع، وتقديم فرص تربوية مناسبة لها، فكانت أنشطة تعليم الكبار .

ثم ظهر التعليم المستمر فى السبعينات كحركة تحليلية نقدية لكل الأشكال التعليمية تحدد طبيعة أنشطتها، ونوعية أهدافها، وتنسق بينها فى إطار تربية شاملة متكاملة، وانبثق من هذه الحركة مجال أكاديمى له بنية معرفية، ولغة اصطلاحية، وطرائق منهجية ومن ثم فقد تجسد مفهوم التعليم المستمر كمفهوم حاكم وموجه لكل تعليم .

ومفهوم التعليم المستمر يعنى فى الواقع « تجديد النظام التربوى فى الزمان والمكان وتنظيم الخبرات والنشاطات التربوية، وجعلها متاحة لكل من يرغب فيها

على مدى الحياة، وبذلك للتعليم المستمر بعدان أفقى ورأسى، فى بعده الأفقى يعنى بتنويع التعليم فى الأماكن المختلفة، وفى بعده الرأسى يعنى بإتاحة الفرص للدخول فى أى نوع من أنواع التعليم فى الأزمنة المختلفة.

والتعليم المستمر ينادى فى جوهره بالتحول والتغير الكيفى والنوعى لنظام التعليم الحالى فهو نظرة فلسفية شاملة لمعنى التغيير ومتضمناته على صعيد التربية والسياسة والمجتمع والاقتصاد، يهدف أساساً إلى تحقيق الذات بالنسبة للفرد عن طريق الاختيار الحر من بين كل متكامل مرن من المعارف والخبرات التنظيمية، وهذا التنوع ضمن الوحدة للمعارف والخبرات هو الذى يزود ليس الأفراد أو النخبة، بل المجتمع ككل باحتياجاته المعرفية فى كل مجالات الحياة يشكل بذلك المجتمع المعلم المتعلم وبذلك فالتعليم المستمر مدى الحياة، هو المبدأ التنظيمى لكل أنواع التعليم انطلاقاً من مسلمة أساسية تؤكد أن التغير عملية مستمرة ومتسارعة، مما يفرض أن يكون التعليم عملية مستمرة ومدى الحياة.

وهو تعبير عن خطط شاملة تهدف إلى تجديد بنى النظام التعليمى القائم وتنمية جميع الإمكانات التعليمية، بهدف توفير متطلبات الحق الكامل فى التعليم لكل أبناء المجتمع فى كل الأعمار، من أجل تحقيق ديمقراطية التعليم باعتبار التعليم مطلباً أساسياً لتحقيق الذات وتفتحها من أجل تقدم المجتمع.

مبادىء للتعليم المستمر :

والمفهوم كما سبق توضيحه يرتكز على عدة خصائص تحدد فلسفته التى يعمل فى إطارها وأهم هذه المبادىء ما يأتى :

١ ـ التعليم المستمر تعليم للجميع ليس تعليماً للنخبة فقط

"Education For All"

ينص الحق فى التعليم كما جاء فى إعلان المؤتمر الرابع لتعليم الكبار المنعقد فى باريس فى الفترة من ١٩ ـ ٢٩ مارس سنة ١٩٨٥ على أن الحق فى التعليم يتكون من العناصر الآتية :

* الحق فى معرفة القراءة والكتابة.
* الحق فى طرح الأسئلة والتفكير.

* الحق فى التخيل والإبداع.
* الحق فى فهم البيئة وتدوين التاريخ.
* الحق فى الاستفادة من الموارد التعليمية.
* الحق فى تنمية المهارات الفردية والجماعية.

وهذا الحق فى التعليم بأبعاده المختلفة يؤكد حقيقة أساسية هى أن التعليم يجب أن يكون للجميع وأن يكون الناس جميعا متساوين فى الحقوق والواجبات، وهذا يتطلب توفير إمكانات تحقيق التعليم للجميع، وأن تكون التفاعلات الداخلية للنظام التعليمى ديمقراطية، وأن تكون أهدافه وسياساته ومناهجه أيضاً ديمقراطية بمعنى أن تكون عناصر العملية التربوية المختلفة سواء كانت مدخلاتها أومخرجاتها أو تفاعلاتها الداخلية ديقراطية، وهذا يتطلب تحقيق المساواة والحرية والمشاركة فى العملية التربوية برمتها.

وإذا كان التعليم النظامى - منذ نشأته - تعليماً بورجوازيًّاس يخدم الطبقة الحاكمة، على حساب بقية الجماهير وذلك بنمطيته الشديدة، وانتقائيته وثقافته وتفاعلاته فإنه لا يمكن أن يكون تعليماً جماهيرياً، فإن التعليم المستمر يعمل ضد الانتقائية والنمطية، من خلال تعزيزه لمكانة الفئات المحرومة وانفتاحه على كل الطبقات الاجتماعية، وبالذات العاملة التى حرمت طويلاً من فرص التعليم المستمر، ويهتم بنشر التعليم وتعميمه وتيسيره لكل إنسان مهما كانت قدراته وأوضاعه.

٢ - التعليم المستمر مرن لا نمطى :"Flexibility"

يتسم التعليم النظامى بالنمطية التى تتسم أحياناً أوكثيراً بالروتينية والبيروقراطية والجمود، أى أنه نوع من التعليم يتطلب من زبائنه أن يتكيفوا لمتطلباته ومن لم يتكيف مع هذه الشروط لأسباب مجتمعية أو أسرية أو حتى تربوية يحكم عليه بالفشل، فاللوم دائماً على الضحية وليس اللوم على النظام.

أما التعليم المستمر فعلى العكس من ذلك تماماً ، أنه يتسم بالمرونة فلا روتين ولا بيروقراطية ولا نمطية، وإنما الطالب أولاً، ثم المؤسسة ثانياً، ويركز بقدر أكبر على

حاجات الطرف الاول ثم على ملاءمة الطرف الثانى ويشجع تنوع الفرص الفردية بدلاً من تشجيع الصيغ الموجودة، ويقلل التركيز على متطلبات الوقت والمكان وحتى المسافات الدراسية لحساب تلبية احتياجات المتعلمين بكفاءة وجدة.

وبذلك فكل صيغة تربوية معترف بها يجب أن تتوافق مع نوعية المتعلم، والحاجات المستهدفة، والإمكانيات المتاحة، والظروف القائمة، والتربية فى التعليم المستمر عملية إنسانية، تعمل مع أناس، لأغراض اجتماعية، ولذلك فهى تربية تحريرية ، تحرر الذات من قيود الاغتراب والضعف والجهل، والتربية إذ تعمل لتنمية لا تفرق بين تنمية فردية وجماعية، مادية وأدبية ، ولا تعمل لصالح نظام على حساب منظومين فيه، ولا لحساب طبقة سائدة على حساب طبقات مسودة، وهكذا تاخذ بالتجديدية والتنوعية والابتكارية والعملية وبدلاً من تركيزها على وجود وحماية مؤسسات نمطية تركز على انتشار شبكة من البرامج والصيغ والأساليب التى لا تعرف النمطية ولا الروتينية ولا البيروقراطية ولا الزمنية.

٣-التعليم المستمر تعليم متكامل : "Integration"

ينظر التعليم النظامى للإنسان نظرة تجزيئية ، حيث يرى أن مراحل النمو المختلفة للإنسان وهى الطفولة والمراهقة والرشد والشيخوخة مراحل منفصلة ، وأن الإنسان قادر على التعليم فى المراحل الأولى فقط من حياته وهى الطفولة والمراهقة ، ولذلك يجب أن يكون فى هذه الفترة متفرغاً فقط للتعليم والتحصيل والإعداد للمراحل التالية والتى يجب أن ينقطع فيها للعمل ، وهذه النظرة الآلية الميكانيكية قد ثبت خطؤها حيث إن الإنسان فى صيرورة دائمة منذ الميلاد وحتى الوفاة وأنه من خلال هذه الرحلة العمرية طالت أو قصرت فى تفاعل مستمر مع وسطه وبيئته، وأن هذا التفاعل المستمر يؤدى به إلى التعليم المستمر سواء كان فى بداية الحياة أو فى مراحل متأخرة منها ، وأنه دائماً وأبداً يعمل على تحقيق ذاته وفى نفس الوقت يبحث دائماً عن معنى لوجوده ، والعلم الذى يعيش فيه ، وهذا البحث الدائم الدائب لا ينقطع ، وأن هذه العملية تتوافق مع طبيعة الإنسان الذى تتسم بالحرية وبالإرادة وبالقدرة الدائمة على التعلم .

ولما كان تحقيق الذات هو الدافع الأساسى لحياة الإنسان ، ولما كان استمرارية تحقيق الذات ، أى استمرارية الشخصية الإنسانية فى النماء والارتقاء هو حجر

الزاوية لضمان سلامة الشخصية الإنسانية ، فإن التعلم الذاتى **Self Learning** هو الذى يضمن للفرد حياة نفسية متجددة ، وتوظيفاً أمثل لقدراته وامكاناته وترشيداً لأسلوب حياته ، وتدعيماً متزايداً لبنية الشخصية التى تعتبر نهراً متجدداً عذباً وليس بركة آسنة راكدة ، من هنا يكون التعليم عملية متكاملة تنظر للإنسان نظرة تكاملية دينامية ، تنظر للإنسان ككل فلا تجزئه ، تهتم بالجوانب المعرفية ، كما تهتم بالجوانب الوجدانية والمهارية ، تعمل على تنمية الشخصية الإنسانية ككل سواء على المستوى الجسمى أو الوجدانى أو الفكرى ، تعمل على تكامل الشخصية الإنسانية من خلال تنمية وعيها بذاتها ووعيها بعالمها الذى تعيش فيه.

من جهة أخرى التعليم المستمر تعليم تكاملى من حيث أنه ينظر إلى جميع الصيغ التربوية نظرة تكاملية فلا يفرق بين صيغ نظامية وأخرى غير نظامية ، ولا يفرق بين تعليم داخل المدرسة أو تعليم خارج المدرسة وإنما المهم كيفية خدمة كل هذه الصيغ والانماط فى تحقيق الأهداف الإنسانية ، كيفية مواجهة هذه الأنماط سواء مجتمعة أو كل على حدة فى توفير متطلبات وحاجات الافراد والمجتمعات بهدف تحقيق النمو المتكامل والارتقاء الشامل للإنسان .

ومن هنا فإن التعليم المستمر يعمل على تكامل صيغ التعليم فى جبهتين هما:

١- إدماج الصيغ الحديثة فى بنية عضوية وظيفية تجسد نظاماً تعليمياً غير مألوف يعرف بالتعليم خارج المدرسة .

٢- إدماج كل هذه الأنواع التعليمية حتى لا توجد ثنائية ، أو ازدواجية تعمل ضد التلاحم القومى والتجانس الثقافى والتنمية الشاملة للفرد والمجتمع .

٤- التعليم المستمر تعليم وظيفى: " Functional "(٤)

فى منتصف الستينات برزت الدعوة إلى مفهوم محو الأمية الوظيفى **Functional Litreracy** باعتباره أسلوباجديدا يعالج مشكلة الأمية من حيث ارتباطها بقضية التنمية الشاملة ، بالربط بين النشاط الإنتاجى الاقتصادى والاهتمامات الفردية ويعلم مهارات الاتصال الأساسية وذلك كله فى تداخل مع عمليات التدريب والتأهيل المهنى المتعلقة بالعمل ، من ثم فإن التعليم الوظيفى ،

هو ذلك التعليم الذى يحقق فيه الإنسان ذاته داخل إطار مجتمع تسهل بنياته وعلاقاته كلها عملية التنمية الكاملة لشخصية الإنسان .

إلا أن التجارب أثبتت أن مفهوم محو الإمية الوظيفى يركز على إعطاء الأولوية فى جهود محو الأمية للعاملين فى مواقع عمل محددة ، يمثل وجودهم بها اختناقا وعائقًا فى سبيل التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وعليه فإن محو الأمية الوظيفى مفهوم انتقائى ليس من أهدافه محو الأمية بصورة شاملة ، وبالتالى فالتركيز وفق هذا المفهوم يكون فى جملته على الجوانب الاقتصادية والعملية مهملا بذلك الجوانب الاجتماعية والثقافية .

والوظيفية بهذا المعنى لا تهتم إلا بجانب واحد فقط من جوانب الشخصية الإنسانية هو الجانب المهارى مهملة بقية جوانب الشخصية الإنسانية ، هدفها تغيير أوضاع المجتمع بصورة دائمة نحو مستقبل مرغوب ، مستقبل منبثق من وعى الناس، ووعيهم بحاضرهم وبالمستقبل أو المستقبلات البديلة ، وبالوسائل أو الطرق الموصلة من الحاضر إلى المستقبل ، ومن هنا فالدور الأول والأخير فى تحقيق التنمية يكون للإنسان ، لوعى الإنسان ، لحضور الإنسان ، حضوره مع ذاته ، وحضوره فى مجتمعه وفى العالم الذى يعيش فيه ، حضوره النفسى والفكرى ، والأيديولوجى، وهذا يتطلب من كل فرد أن يكون متعاطفًا مع متطلبات تحقيق هذا المستقبل ، مدركا لهذه المتطلبات فاهما للتضحيات المطلوبة ، مشاركا بمسئولية وعقلانية فى هذه التضحيات ، وهذا لن يحدث دون معرفة واسعة وتعليم شامل مستمر ، وخلاص مستمر من كل القيود المعقدة للإنسان ، وهذا يتطلب أن يكون الإنسان حرًا قادرًا على اتخاذ قراراته مريدًا لاتخاذ هذه القرارات ، مقتنعا إلى أقصى درجة ، اقتناعا ذاتيا واعيا قائما على الإدراك والفهم والعقلانية ، بأن هذه المشاركة القائمة على قراراته أساس لتحقيق مستقبله ومستقبل أبنائه ، وأن عائد هذه المشاركة وما يترتب عليها من تضحيات سيعود عليه وعلى أبنائه فى صورة استجابة مجتمعية لحاجاته وحاجات أبنائه ، سواء كانت هذه الحاجات اقتصادية أواجتماعية أوثقافية أو نفسية .

والإنسان بهذه الصورة إمكانية صيرورة دائمة من الارتقاء النفسى والفكرى المهارى ، إمكانية مفتوحة وقابلة وقادرة إلى أقصى مدى ، تستطيع أن تكون

ماتريده وما تصبو إليه ، طالما ملكت الحرية والإرادة ، ووجد معنى لوجودها ولم تغترب عن واقعها . وهنا لا تكون الوظيفية مجرد إعطاء الإنسان مهارات تتصل بالعمل من خلال التدريب الحرفى وإنما هى ابتكارية وتجددية مستمرة هدفها الخلق والابتكار والابداع المستمر لأنماط وصيغ وطرائق ومناهج شديدة التنوع لمواجهة مطالب وحاجات فردية ومؤسسية ومجتمعية مستمرة التغير والتنوع ، لأن الحاجات والمطالب التى تفرضها الضرورات الوظيفية أو الوجودية ، الفردية أو المجتمعية ، غير مشبعة وفى صيرورة مستمرة ما دام الإنسان يصبو دائماً إلى تحقيق ذاته ، وإلى الاستمرار فى إزكاء الذات وصولاً للهوية المتكاملة ، إلى الرشد الإنسانى الذى لا يعرف حداً معيناً من الإنجاز وكفى ، وإنما يصبو دائما إلى مزيد من الإنجاز ، وإتقان الإنجاز ، الإنسان الراشد هو الإنسان المستقل النشط ، هو الإنسان الموضوعى التنويرى ، هو صاحب القدرات الواسعة والمسئوليات المتعددة ، هو المتقبل لذاته الراضى عنها ، الغيرى وليس الأنانى ، هو صاحب الهوية المتماسكة المتكاملة الذى يهتم بالعموميات والقضايا الأصيلة .. ، الإنسان الراشد متسامح له علاقات إنسانية طيبة ، قادر على مواجهة التغير وساعى إليه ، تعاونى واسع المعرفة .

كل هذه الصفات يتطلبها ويفرضها العصر الذى يعيش فيه ، والمستقبل الذى يصبو إليه ، وهذا لا يمكن أن يحدث بتدريب وظيفى ، أو إتقانه لحرفة ، أو حفظ لمجموعة من الكتب فى عدد أكثر من السنوات ، وإنما يمكن أن يتحقق بتعليم مستمر مبتكر ومتجدد ومبدع لصيغ تربوية لكل منها وظيفة موازية لحاجة أو مطلب إنسانى أو مجتمعى مستمر ومتجدد ، ومن هنا تكون الوظيفية استمراراً للابتكار والتجديد الهادف والموجه والمحقق لحاجات إنسانية متجددة ومستمرة ، وليس نمطاً وقولبة للإنسان فى قالب تعليمى نمطى قاصر ينظر للإنسان نظرة مغلقة أو تجزيئية .

المبادئ السابقة توضح السمات العامة لمفهوم التعليم المستمر ، تلك التى فرضتها متغيرات العصر خاصة ثورة العلم والتكنولوجيا ، وما ترتب عليها من سرعة التغير والتقادم المستمر للمعرفة الإنسانية ، والتى فرضت نظرة جديدة للكون والوجود الإنسانى فالكون أصبح نظاماً مفتوحاً دينامى الحركة ، فى نماء وارتقاء مستمر والعلاقات الإنسانية أصبحت أكثر تعقيداً ، وأكثر تداخلا ، واعتماداً ، والثقافات أصبحت أكثر ثراءً وثورة الإعلام والاتصال التى هى نتاج لثورة العلم

والتكنولوجيا ، قربت المسافات وقضت على الحواجز والإنسان أصبح أكثر من مجرد صندوق أسود يتصرف بآلية تحكمها معادلة « المثير – الاستجابة » وأصبح أكثر من مجرد كائن غريزى تحكمه الغرائز والآليات الدفاعية والنزعات المرضية ، ويتحكم فيه ماضيه وغرائزه غير المشبعة ، وإنما أصبح إمكانية غائية مستمرة السمو والارتقاء منفتح على غيره ، يبحث دائماً عن معنى لحياته ، تسيره إرادة الوجود كما تنميه إرادة العطاء ، يعمل دائماً لتحقيق ذاته وإزكاء هذه الذات بنفسه لنفسه وبغيره ومن أجل غيره ، فالعطاء الدائم هو أساس الوجود وبذلك تغيرت بالضرورة النظرة إلى التربية وإلى التعلم ، فالتربية عملية تفاعل مستمر بين الإنسان وواقعه بين الإنسان والإنسان ما يصبو إليه فلا تربية بدون تفاعل ، والتربية عملية متعددة الأبعاد ، تستند على الخبرة السابقة وإلى قدرات الفرد وميوله ، وإلى أهدافه ودوافعه ومطامحه ، والتعلم نتاج للخبرة ، فكل تعلم يتأتى فحسب من خلال الخبرة ، والخبرة تعنى التفاعل مع البيئة ، بذلك لا يمكن أن يكون التعليم شيئاً يعطيه المعلم لتلاميذه أو يفعله لهم بطريقة مباشرة ، ولا تكون المعرفة نتيجة لتدريس المعلم رغم أهميته ، وإنما تكون نتيجة لتعلم الفرد ذاته ، لأن هذا التعلم مرتبط بأهدافه ومطامحه وإشباعاته ، فالأهداف الواعية لدى المتعلمين هى التى تحدد قيمة التعلم .

إذن التعلم الذاتى هو الطريق الأمثل لتحقيق الذات من خلال تحقيق استقلال ذاتى متزايد من خلال الاتجاه المستمر نحو الاعتماد على الذات ، بالتحرر المستمر من المؤثرات الخارجية غير المواتية ، وتزايد القدرة على اتخاذ القرارات وتحمل المسئوليات ومواجهة الواقع الناتج عن ذلك ، ومن خلال تحقيق إطار مرجعى أكثر كفاءة وملاءمة بالمزيد من المعلومات الأكثر دقة عن الذات والواقع والعالم ، وبتحسين الجدارة والكفاءة فى مواجهة المشكلات الحياتية وفى القدرة على تنفيذ خطط الذات نحو المستقبل ، وإلى تحسن فى علاقات الذات مع البيئة الاجتماعية والطبيعية ، والذى يؤدى بدوره إلى القدرة على حل الصراعات والتغلب على الدفاعات غير الملاءمة والمعطلة للإنسان والمقعدة له عن مواجهة التغير والقدرة على تحمل التوتر .

وإذا كان التعلم الذاتى هو الأداة الرئيسية لتحقيق ذلك فإن له العديد من الصيغ والأنماط والبرامج التربوية والتى تعمل جميعها فى إطار مفهوم التعليم المستمر .

أنماط ونماذج للتعليم المستمر :

انطلاقا مما سبق يمكن أن نحدد ثلاثة أنواع من القوى والمؤثرات التربوية تباشر تأثيرها على تعليم الإنسان طوال حياته ، وهى :

(١) التعليم الرسمى (النظامى **Formal Education**) ممثلا فى نظام التعليم الرسمى بالمدارس والمعاهد والجامعات .

(٢) التعليم اللامدرسى (غير النظامى **Non - Formal Education**) وهو يعنى ذلك النشاط الاختيارى الذى يتجه إليه الأفراد لرغبتهم فى تحسين أوضاعهم المهنية ، أو لتحسين نمط حياتهم ، أو لاستثمار وقت فراغهم بطريقة جيدة، أو لتعويض وتدارك نقص معين فى إعداد الفرد فى سنوات حياته الدراسية السابقة والاستزادة والمعرفة .

(٣) التعليم العرضى فى سياق الحياة **Informal Education** ويعنى تلك العمليات المستمرة التى يكتسب فيها الفرد الاتجاهات والقيم والمهارات والمعرفة من واقع الخبرة اليومية ، ومن خلال الوسائط والمؤثرات التى يحتك بها فى بيئته ، سواء كانت هى الأسرة أو الجيران ، أو جماعة الأصدقاء ، أو مجموعة العمل أو اللهو . . سواء كان ذلك فى الأسواق أو المكتبات ، أو من خلال وسيلة من وسائل الثقافة .

ويتجه بعض العلماء إلى إضافة نوع رابع من التعليم يطلقون عليه التعليم الدولى **International Education** ويقصد به اكتساب المعرفة خارج حدود الوطن الذى ينتمى إليه الفرد .

على أنه تجدر الإشارة دائما إلى التداخل والتفاعل بين هذه الأنواع ، وتضافرها جميعا فى تربية الأفراد ، وأن الإطار الذى يشتمل عليها يطلق عليه النظام التعليمى **Education System** ، وهو يعد واحدا من النظم الفرعية التى تشكل فى مجمعها وتفاعلاتها النظام الاجتماعى العام .

كما يجدر التنويه بهذا التحول فى مفهوم التعليم فى الفكر التربوى الحديث، من المفهوم التقليدى بقصر عمليات التعليم على ما تقوم به المؤسسات التعليمية من وظائف تؤدى إلى نقل التراث الثقافى من جيل إلى جيل ، والحفاظ على الأوضاع القائمة بإعداد الأفراد للعمل والإنتاج والحياة وفق متطلبات الواقع الاجتماعى إلى مفهوم التعلم المستمر أو التعليم مدى الحياة **Lifelong Learning** ،

وهو المفهوم الذى يتسق مع طبيعة العصر ، ويستجيب لحاجات الأفراد فى عصرنا الراهن الذى يتسم بالتغير كحقيقة وضرورة ، وبالتالى لابد وأن تخضع لهذه الحقيقة .

من هذا المنطلق فإن مفهوم التعليم المستمر إنما يعنى أن التعليم لا ينتهى بانتهاء الفرد من مرحلة تعليمية معينة ، وإنما يستمر باستمرار الحياة وفى سياقها ، وذلك من أجل تحقيق آمال الفرد ، وتنمية قدراته وإمكاناته ومهاراته الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية ، وتصحيح نواحى القصور فى التعليم النظامى الرسمى وتمكين الفرد من مواجهة مطالب العلم المتغير ، وتحقيق طموحه الشخصى فى الحاضر والمستقبل ، وأهم من ذلك كله هو أن يعرف الإنسان الاستقصاء والتساؤل وأن "يتعلم كيف يتعلم" .

هذا ويستند التعليم المستمر على مكونات ثلاثة أساسية سبق أن تعرضنا لها يمكن إيجازها فيما يلى :

(١) **الامتداد الزمنى** : ويعنى توسيع نطاق التعلم زمنيا ، بحيث يغطى فترات الحياة لشخص المتعلم .

(٢) **الابتكار** : وهو يعنى استحداث أشكال تربوية جديدة ، وتطوير الأساليب التقليدية القائمة من حيث البنية ، والقواعد المنظمة ، ومرونة البرنامج التعليمى ، وأساليب الإدارة والتقييم .

(٣) **التكامل** : ويعنى التكامل فيما بين أنماط التربية على مدى حياة الفرد ، استناداً إلى النظرة التكاملية الحديثة لوحدة المعرفة الإنسانية وتأكيداً لحقيقة تكامل جوانب الشخصية : البدنية ، والعقلية ، والاجتماعية ، والوجدانية .

هذا ويرى بعض المفكرين التربويين أن مفهوم التعليم المستمر هو المفهوم الأكثر ملاءمة للإنسان الحديث ، وقد يغالى البعض فى التطرف فيرى أنها سوف تحل تماما محل الأساليب التقليدية فى التعليم ، حيث ينادى البعض بفكرة « فك أو حل المدرسة **Deschooling** »، وأنها ستزول وتذوب فى مجتمع المستقبل الذى سوف يتحول إلى مدرسة كبيرة لتعليم كل أفراد الشعب ، ويعتمد بعض المفكرين أن هذا الاتجاه سيسود نتيجة انتشار استخدام الكمبيوتر والانخفاض المستمر لأسعاره .

كما يرى بعض الباحثين التربويين أن المدرسة هى التى تمنح المركز الاجتماعى ، وهى التى تختار الحاكم والمحكومين استعداداً لتكاملهم فى مجتمع طبقى مبالغ فيه ، وهى التى تدرب التلاميذ على الخضوع لجميع المؤسسات الأخرى ، كما يضيف هؤلاء بأن الاستثمار فى التعليم هو استثمار لا عائد له .

ويؤيد بعض العلماء فكرة التعلم المستمر واللامدرسى على اعتبار أنه الطريق الحقيقى لممارسة الحرية واسترداد الذاتية .

على أن هذه الأفكار التى تؤيد اللامدرسية والتعلم المستمر ، لا ينبغى أن تبهرنا إلى الدرجة التى نطلب فيها للمدرسة الذوبان والفناء ، ذلك أن التعليم النظامى ليس مسئولاً عن خلق عدم المساواة ونظام الطبقات الاجتماعية ، بل هو النظام الاقتصادى نفسه ، وإن أعتبرت المدرسة إلى حد ما الانعكاس والأداة الدائمة له ، كما أن الانحياز إلى الجانب الذى يؤيد اكتساب المعرفة بطريقة ذاتية بعيداً عن المدرسة يجانبه الصواب ، ذلك أن التعليم المدرسى هو الذى يغرس فى الطفل قيمة التعلم ، وقيمة المعرفة ، ويعلمه كيف يتعلم ، وهذا يعتبر الأساس الحقيقى لنظام التعلم المستمر مدى الحياة . من هذا كله فإن التعلم المستمر وما يتطلبه من أشكال تعليمية لا مدرسية لا يعنى بالضرورة فك المدرسة أو حلها ، أو أن اللامدرسية تتناقض مع المدرسية ، بل إن لكل شروطا وظروفا ، أهدافا وطبيعة ، مزايا وعيوبا .

ومن هذا المنطلق يمكن القول بأن التعلم المستمر يتسق مع الأدوار التى يقوم بها فى كل مرحلة وأساسه المتكامل مع كل أنماط التعليم النظامى وغير النظامى والعرضى ، وأنه يتميز بمرونته وتعداد محتواه وأساليبه وطرقه التعليمية ، وأنه يصحح مفهوم الأنظمة التعليمية حيث يؤكد على التعلم أكثر من التأكيد على التعليم ، وأنه يستهدف الاستمرارية التى تحقق للفرد المعرفة المناسبة فى المرحلة التى تحقق للفرد المعرفة المناسبة فى المرحلة التى يعيشها ، وفى نفس الوقت يهيئه للمرحلة التالية من عمره ، وبالتالى يحقق النمو المتكامل لشخصية الفرد التى تجعله يقوم بدوره فى المجتمع فى صيغة متناسبة .

هذا ومن أهم دوافع الفرد للتعلم المستمر هو تنمية قدراته للحصول على عمل أفضل أو القيام بمطالب مهنته الحالية على نحو أفضل ، أو تحسين دخله ووضعه الاجتماعى ، أو رفع مستواه المعرفى والثقافى ليتمكن من التجاوب

والتفاعل والمشاركة فى تطوير الأحداث المحيطة به وهنا تكون القيمة الكبرى للتعليم المستمر المرتكز أساساً على التعلم الذاتى .

ويمكن توضيح ذلك بعرض بعض صيغ ونماذج للتعليم المستمر ولعل من أهمها (٥) :

١- التعليم المفتوح . ٢- التعليم الموازى . ٣- التعليم المتناوب .

(١) التعليم المفتوح : « Open Education »

يعتبر مفهوم التعليم المفتوح من المفاهيم الغامضة التى تحمل العديد من المعانى والإيماءات ، فمثلاً يمكن أن يكون المقصود منه التخفيف من شروط القيد والسن والمستوى الأكاديمى للمتعلمين عند التحاقهم بالمؤسسات التعليمية ، كما يمكن أن يكون المقصود به عدم الارتباط بمحتوى تعليمى معين يلتزم به المتعلمون فى مرحلة التعليم ، وبالتالى لا يكون هناك ضرورة لتحديد مستوى أكاديمى معين لابد أن يصلوا إليه جميعاً ، كما يحمل إيماءات التخفيف من قيود الاستمرار فى عملية التعلم لطول الوقت كما تغترض التربية النظامية أو التخفيف من متطلبات الامتحانات وأدوات القياس والتقوية المختلفة ، أو عدم الالتزام بأهداف مسبقة تفرض على المتعلمين من قبل المسئولين على عملية التعلم ، أو عدم الالتزام بطريقة معينة فى التدريس والتعليم مثل ضرورة التعليم المباشر وجها لوجه كما يتم فى التعليم النمطى ، أو عدم الالتزام بمكان محدد للدراسة مثل المبنى المدرسى أو المبنى التعليمى .. أو غير ذلك ورغم ذلك فإن هناك تعريفا تقريباً لمصطلح التعليم المفتوح يمكن أن نتبناه فى هذه الدراسة وهذا المصطلح مستمد من الهدف الذى من أجله وجد مثل هذا المفهوم أو النمط من التعليم ، ألا وهو التخفف بأكبر درجة ممكنة من نمطية التعليم النظامى وشكليته من أجل توفير الفرص التعليمية اللازمة لأولئك الذين لا يستطيعون تحقيق الاستفادة التربوية لأنفسهم من خلاله سواء كانت عدم الاستطاعة هذه ترجع لظروف شخصية أو اجتماعية - اقتصادية أو تربوية وبذلك يكون التعليم المفتوح هو « كل الفرص التعليمية التى يمكن توفيرها بعيداً عن الشروط النمطية التقليدية التى يتسم بها التعليم النظامى لمقابلة حاجات تربوية أساساً فردية أو جماعية لأولئك الذين حرموا من التعليم النظامى أو يريدون المزيد من التعليم » .

وهو بذلك يتسم بمجموعة من السمات من أهمها :

– يوجه النظام الطالب عن طريق استنباط أهدافه منه هو وتفسيرها وتحليلها عند نقطة البداية وطوال اتصاله ببرنامج التعليم .

– يقوم النظام بصياغة الأهداف بطريقة تغيير كأساس لصنع القرارات المتصلة بعملية التعلم ، والتى تجعلها معروفة لدى جميع الطلاب ومقبولة لديهم وقابلة للتعديل بواسطتهم .

– يكون البرنامج مرنا لمقابلة مجموعة متباينة ومتنوعة من الحاجات الفردية بأساليب متنوعة من أساليب التعليم .

– يهدف التقويم فيه إلى التحسين والتعديل والبناء ، ويهدف إلى رفع مستوى كفاءة الأداء .

– التعليم فيه يتم بالاستقلال الذاتى وليس بالمواجهة المباشرة وإن كان هذا أحد أساليبه ونظم التعليم المفتوح متعددة ومتنوعة من أهمها :

(أ) التعليم من – عن بعد :Education distance

(ب) التعليم بالمراسلة : Correspondence Education

(جـ) التعليم المبرمج : Programmed Education

وهى فى معظمها تعتمد على اعتماد المتعلم على نفسه فى التعليم المخضع لأية شروط سوى شرط قدرته هو على هذا التعليم ودافعيته نحو الاستمرار فى هذا التعليم وأغراضه وطموحاته منه .

(٢) التعليم الموازى : " Parallal Education "

يعتبر التعليم الموازى نوعاً من التعليم شبه النظامى ، يقع تحت مظلة التعليم غير النظامى ويعنى كل الفرص التعليمية التى تقدم للتعويض عن ضعفه وتقصيره وهو يتواجد جنباً إلى جنب وعلى خط متصل مع التعليم النظامى دون أن يكون جزءا منه أو خاضعا له . وهو نوع من الفرص التعليمية الأولى لمن لم يحصل على أى فرصة تعليمية ، والثانية لمن حصل على جزء من التعليم ولم يكمله ، والثالثة لمن يريد الاستزادة من التعليم مهما كان مستواه ، وهى الفرصة التى توفرها الهيئات الحكومية وغير الحكومية (التطوعية) ، والتى تشكل نظاماً متسقاً ومنسجما

وتعايشاً مع التعليم النظامى دون الخضوع له وإن أمكن ابتكار جسور وقنوات للتواصل والتنسيق بينهما .

وهو بـذلك يعمل على تدعيم وتنمية التعليم النظامى ، وتصحيحه وإبطال ما ينبغى إبطاله فيه ، وأحياناً يحل محله لتعويض ما فات التعليم النظامى بفضل خصائصه وقدراته على مواجهة احتياجات تحقيق كل الأهداف التربوية .

ولكى يحقق التعليم الموازى أهدافه لابد من إنشاء بدائل من الفرص التربوية وتنميتها وتنسيقها لتشكل نظاماً ، ولابد من تزويد تلك العمليات المتصلة بالتعليم الموازى من (نقل – تحويل – استيعاب – إعادة توجيه) ، بالشروط التى تؤدى إلى ربط هذا التعليم ربطا جيداً بغيره من العمليات الاجتماعية بما فيها التعليم النظامى .

ومن الواضح أنه لا يوجـد فرق كبير بين التعليم الموازى والتعليم غير النظامى ، اللهم فى أن التعليم غير النظامى أكثر شمولا من التعليم الموازى ، وذلك بما يقدمه من فرص تعليمية أوسع سواء كانت للأطفال فى الفئة العمرية قبل سن التعليم الأساسى ، أو للكبار فى الفئة العمرية التى بعد التعليم النظامى ، كما أن التعليم الموازى يتميز عن التعليم غير النظامى وتعليم الكبار بأنه فى مرحلة وسط بين التعليم النظامى وغير النظامى وتعليم الكبار ، فضلا عما يتميز به من تنسيق وتخطيط أنشطته فى نظام تعليمى يوازى التعليم النظامى .

(٣) التعليم المتناوب : « Recurrent Education »

هو نوع من التعليم شبه النظامى يقع تحت مظلة التعليم غير النظامى أوتعليم الكبار يتناوب فيه الدارسون على فترات كل من التعليم والعمل وفق ظروفهم واحتياجاتهم .

وترجع فكرة التعليم المتنـاوب إلى سـنة ١٩٦٩ فى مؤتمر وزراء التربية بفرساى "Veria" حيث اقترحه وزير الـتربية السويدى فى ذلك الوقت أولف بالم " Palme Olof " باعتباره صيغة تربوية الهدف منها تحقيق عدة أهداف فى آن واحد وهى :

– تحقيق المزيد من العدالة فى توزيع الفرص التعليمية وخاصة فى التعليم بعد الإلزامي العالى والجامعى ، وهذا من منطلق أن التعليم الإلزامى لابد وأن يكون قد

حقق استيعابا كاملا من هم فى الفئة العمرية المقابلة لسن الإلزام ، وفى نفس الوقت على درجة من الكفاية تؤهل تاركه للتعلم الذاتى .

– محاولة ربط التعليم بالعمل ، وبذلك يتحقق مفهوم التعليم المستمر مدى الحياة بالتناوب فيما بين التعليم النظامى والعمل .

– الاستفادة من كافة أشكال التعليم الأخرى التى توفرها مؤسسات المجتمع سواء كانت تربوية أو غير تربوية ، والتكامل معها .

– الاستفادة من كافة أشكال التعليم الأخرى التى توفرها مؤسسات المجتمع سواء كانت تربوية أو غير تربوية ، والتكامل معها .

– التغلب على عيوب التعليم النظامى المتصل والذى يستمر فيه الطالب أكثر من ١٦ سنة فيما بين سن (٦ – ٢٦) ، وفصل الشباب عن حياة العمل مدة طويلة وبذلك ينفصلون عن حياتهم الطبيعية ، مع انفصال المدرسة عن المجتمع وجمودها وعدم قدرتها على ملاحقة التغير ، وعدم قدرة التعليم النظامى على مواجهة مطالب سوق العمل كميا وكيفيا، وزيادة كلفة الفرصة التعليمية النظامية بصورة أصبحت تحول دون تحقيق تكافؤ الفرص التعليمية ، وما يؤدى إليه التعليم النظامى من اتساع للفجوة بين عالمى الصغار والكبار ، وما يترتب على طول مدة التعليم النظامى المتصل من تأخير لنضج المتعلم وتطويل فترة مراهقته .

وهو بذلك يعتبر استراتيجية شاملة لكل تعليم بعد الإلزامى ، أو بعد الأساسى والسمة المميزة له هى توزيع التعليم على مدى حياة الفرد عن طريق التناوب المستمر بين التعليم وأنشطة أخرى بديلة أساسا العمل ، ولكن أيضا مع وقت الفراغ أو الإحالة التقليدية للمعاش .

ولعل أهم العوامل التى تدعو الأخذ بهذه الصيغة التعليمية فضلا عن تحقيق العدالة فى توزيع الفرص التعليمية ، والتغلب على عيوب التعليم النظامى ، هو ترشيد الإنفاق على التعليم النظامى والاستجابة لمطالب المرونة المهنية التى يفرضها التقدم العلمى والتكنولوجى على بنية المهن وعلى نمط العمالة وتوزيع السكان على قطاعات العمل المختلفة (الزراعية والصناعية والخدمية والمعلوماتية) .

هذه هى أهم الصيغ والأشكال التعليمية التى حددتها المفاهيم السابقة وهى جميعها تهدف إلى تحقيق فلسفة التعليم المستمر ، وصولاً إلى تحقيق الغاية الكبرى

وهى المجتمع المعلم المتعلم الذى يصبح فيه كل فرد « إما عالما أو متعلما أو محبًا للعلماء ولا يكون الرابعة وهى كراهية العلم والعلماء فيهلك » كما قال رسول الله ﷺ.

وهى فى معظمها تنتمى إلى التعليم الذى يتم خارج المدرسة **out of school** متكاملا معها لتحقيق فلسفة التعليم المستمر .

شروط تحقيق هذه الصيغ والنماذج لأهدافها :

١- لابد من توفير قاعدة انطلاق من التعليم العام والإلزامى والمتكافئ والموحد لكافة أبناء المجتمع دون استثناء لأى ظرف ، بحيث يوفر القدر الضرورى واللازم والكافى لكل فرد كى يستطيع مواصلة التعليم معتمدا على ذاته وهى النقطة التى يمكن أن نطلق عليها نقطة ذاتية التعليم « **Self Learning Point** » .

٢- لابد من إعادة النظر فى التعليم النظامى بحيث يصبح التعليم النظامى مهما طال مداه مجرد حلقة من سلسلة للتعليم المستمر وبذلك يصبح التعليم مدى الحياة ضرورة وواقع اجتماعى .

٣- لابد من تجميع هذه الصيغ جميعًا فى صيغة « شبكة قومية للتعليم » تصنف وتجمع وتحدد إمكانيات كل نمط والأهداف التى يستطيع تحقيقها والفئات التى يمكن أن تستفيد منها .

٤- لابد من تحقيق تكامل وتنسيق بين جميع هذه الأنماط والصيغ فى ضوء مايتم تحديده من حاجات سواء كانت فردية أو مؤسسية أو مجتمعية وتحديد أى من هذه الصيغ يناسب تحقيق هذه الحاجات .

٥ - لابد من أن تكون هذه الأنشطة والبرامج ضمن خطة شاملة ومتكاملة للتنمية المجتمعية بجميع جوانبها - وتنمية وارتقاء الإنسان حضاريا ولجميع نواحى شخصيته .

* * *

المـــراجـــع

١- راجـــع :

- البنك الدولى : تقرير عن التنمية ١٩٨٤ ، ترجمة مركز الأهرام للترجمة والنشر القاهرة ، ١٩٨٤ ص (١٠٦ - ١٠٨) .

- باولو فريرى : تعليم المقهورين ، ترجمة محمد نور عوض ، لبنان ، دار القلم ، ١٩٨٠ .

John, Simons (editor) The Education dilemma, Oxford The - World Bank, 1980, P. 15.

- فيليب كومز : ازمة العالم فى التعليم من منظور الثمانينات ،

ترجمة أحمد خيرى حربى وآخرون ، دار المريخ ، الرياض ، ص (٢٥ - ٤٠) .

- أحمد الخطيب ، « التربية المستمرة : سياستها ، برامجها وأساليب تنفيذها » مجلة العلوم الاجتماعية ١٩٨٠ .

- عبد الله هنداوى « التربية المستمرة : مفهومها ، اهدافها ومجالاتها »

مجلة التربية المستمرة السنة الأولى العدد الثانى ، يولية ١٩٨٠ .

Martin Carnoy & Henry Levin (eds) The Limits of Educational Reform, New York : David Mckay Company, inc., 1976 .

٢- راجع :

- محمد أبو موسى البكرى : دور التعليم المستمر فى التنمية الاقتصادية

والتنمية ، جامعة الكويت (١١ - ١٦ أبريل ١٩٨١) ، ص (٩٩) .

Ronald dore, The Diploma Disease : Education, Qualification and Development, Los Angeles : Greorge Allen & Unwin, 1976.

Rolland Paulston (ed) Non - Formal Education :

Annotated International Bibliography, New York: PraegerPublishers, 1972.

Ivan lilich, De - Schooling Society, New York : Harper& Row Publishers, 1970.

Everett Reimer, School is Dead : Alterative to Education, New york : Doubleday, Anchor Books Edition 1972 .

A.N Whitehead, The Aims of Education, New York : The New American Library, Inc., (9 the Printing) 1958.

(٣) راجع :

نورمان ماكنزى وآخرون : التعليم المفتوح، ترجمة صالح عزب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بغداد ، ١٩٨٩ ، ص ١٧ .

ـ محمود قمبر : التعليم المستمر ، مرجع سابق، ص ١٠٨ .

ـ طلعت منصور : التعليم الذاتى ، وارتقاء الشخصية ، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٢٠ ـ ٢١ .

ـ محمود قمبر : التعليم المستمر ، مرجع سابق، ص ١٠٠ .

(٤) عبد الفتاح حجاج : استراتيجيات تعليم الكبار فى المجتمعات النامية، أسسها ، علم تعليم الكبار ج ٢ بغداد ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٥ ، ص ١٩٤ ـ ١٩٨ .

-M.S.Knowles, The modern practice if Adult eduction, New-YorK Cambridge, The adult edu, Company, 1980, p.28-29.

(٥) نورمان ماكنزى : التعليم المفتوح ، مرجع سابق ، ص ١٦ .

P.Coombs : New paths to learning for rural children and Youth, UNICEF, 1973, p 11

ـ سلامة صابر محمد العطار : التعليم غير النظامى وتحقيق تكافؤ الفرص التعليمية فى مرحلة التعليم الأساسى فى ج.م.ع، رسالة دكتوراة غير منشورة كلية التربية جامعة عين شمس ، قسم أصول التربية، ١٩٨٩ ، ص ١٣٣ ـ ١٣٤ .

ـ اليونسكو ؛ المؤتمر الرابع لتعليم الكبار ، باريس (١٩ ـ ٢٩ مارس ١٩٨٥)، التقرير النهائى، ص ٢١ ـ ٢٢ .

-M.S.Knowles. The practice of Adult education op,cit, p.19. Ibid, p.25.

ـ مكتب اليونسكو الإقليمى للتربية فى الدول العربية، حول التخطيط من أجل ترابط أفضل بين التربية النظامية وغير النظامية، التقرير النهائى، القاهرة، ٢٢ـ٢٧ / ٩ / ١٩٨٤ ، ص ٦ـ٧ .

- **هايمو مانتين**: تطور التعليم الموازى فى البلدان النامية، ترجمة سونيا غندور، الحلقة الدراسية شبه الإقليمية حول التخطيط من أجل ترابط أفضل من التربية النظامية وغير النظامية، القاهرة ٢٢-٢٧/٩/١٩٨٤، ص١-٢.

-OECD : Equal educational opportunity,Center for educational research and Innovation, Paris, 1973.p.24-25.

- Aulis, Alaneni. Lifelong edu, Pemanent edu., recurrent edu. in adult in finland, Vol. 19, No. 2 Helsinki 1982 .

- D,hainaut : Educational needs in Lifelong edu., France, 1981 p.64-75.

- M.s.Knowles, The modern practice ...., op.cit., p.36.

- G.Vaideanu : Implications of Content reform for The Other Components of The edu, System, UNESCO Curricula and Lifelong edu., France, 1981, p.328.

* * *